مجلة العلوم الإنسانية —— عدد 50 ديسمبر2018، المجلد ب، ص. ص 267-278 ——

الصورة الفنية في الشعر المذهبي

عقيلة كبوس
كلية الآداب واللغة العربية
جامعة الإخوة منتوري
قسنطينة

ملخص:
تبحث هذه الدراسة عن الصورة الفنية في القصيدة المذهبية والعقائدية في القرن الثاني الهجري، محاولة الكشف عن بعض مضامينها وخصائصها وتوضيح دلائلها وجمالياتها وطاقاتها الإبداعية، ومدى تعبيرها عن رؤية الشاعر المذهبي وحالته الوجدانية والنفسية، وتحاول من جهة أخرى رصد تناغمها مع مواقفه الفكرية.
وتهدف الدراسة أيضا إلى رصد مصادر الصورة الفنية في شعر المذهبين والكشف عن آليات استدعاء النصوص وتوظيفها فنيا ودلاليافي تحقيق القيم المعاصرة.
وتفسير سيطرة بعض المصادر أو الأشكال الفنية في الصورة المذهبية، والكشف عن بعض المضامين الفنية التي تمتاز بها الصورة المذهبية والعقائدية.
الكلمات المفتاحية: الشعر، الصورة الفنية، الصياغة الشعرية، القصيدة المذهبية، القصيدة العقائدية.

Résumé :
Cette étude explore l'image artistique du poème doctrinal du deuxième siècle hégirien, en essayant de révéler son contenu et ses caractéristiques, de clarifier ses signes, son esthétique et ses énergies créatives, et de mesurer a quel point elle peut exprimer la vision et l'état émotionnel et psychologique du poète doctrinal.
L'étude vise également à observer les sources de l'image artistique dans la poésie doctrinale et à découvrir les mécanismes de la récitation textuelle et à les utiliser artistiquement et sémantiquement dans la réalisation des valeurs contemporaines. Elle vise aussi à interpréter la dominance de certaines sources ou formes artistiques dans l'image doctrinale, et de détecter certains contenus artistiques qui la caractérisent.

مقدّمة:

تعد الصورة الفنية عنصرا مهما ووسيلة ضرورية في الصياغة الشعرية ،كما أنها الجوهر الثابت والدائم في الشعر ومهما تغيرت مفاهيمه ونظرياته إلا (أن الاهتمام بها يظل قائما ما دام هناك شعراء يبدعون ،ونقاد يحاولون تحليل ما أبدعوه ،وإدراكه والحكم عليه)[1].

© جامعة الإخوة منتوري قسنطينة، الجزائر2018

تعد الصورة الفنية عنصرا مهما ووسيلة ضرورية في الصياغة الشعرية ،كما أنها الجوهر الثابت والدائم في الشعر ومهما تغيرت مفاهيمه ونظرياته إلا (أن الاهتمام بها يظل قائما ما دام هناك شعراء يبدعون ،ونقاد يحاولون تحليل ما أبدعوه ،وإدراكه والحكم عليه)[1] كما أنها من الأدوات الهامة والبارعة إذا أجيد استخدامها في التعبير عن تجربة الشاعر تعبيرا حيا ومؤثرا ،وخلق الأجواء في وجدانات القراء والسامعين ،وذلك بتخطي الدلالات المحددة للألفاظ إلى ما هو أسمى وأوسع وأسرع تسربا إلى النفوس وإبرازها في أثواب حسنة جذابة ،وفيضانها في القصيدة ،كما يقول مصطفى ناصف (يستطيع أن ينقل بكل دقة قالب الخبرة الفنية)[2]

ونظرا للتطور الذي أصاب القصيدة العربية في القرن الثاني الهجري ،ونظرا لأهمية القصيدة من الناحية الاجتماعية كان لا بد أن تتخلص الصورة الفنية من الدائرة الضيقة التي وضعها فيها القدامى بعد أن أصبحت تعبر تعبيرا حيا وصادقا عن أحاسيس الشاعر ووجدانه ،وغدت من الوسائل والعناصر الضرورية في الشعر ،وقصدها الشعراء قصدا ليناسبوا بينها وبين الذوق العام الذي أصابه الترف والفتور من التصوير القديم ،وأخذ الشعراء يتسابقون في رسم الأشكال الفنية لشعرهم وأضافوا عليه قيما جمالية لم نعهدها من قبل ،بعد أن تحرر التشبيه من القديم وأطلق الشعراء له العنان (وانطلق من قيوده التي كان يكبله بها عمود الشعر إلى آفاق رحيبة حتى بلغوا به أرقى درجات التصوير الفني من حيث الدلالة على الأشياء وتجسيمها وتوضيح جزئياتها ،ومن حيث وفرة الظلال التي تتركها الصورة في نفوس القراء والسامعين بحيث يهيمنون معها في كل واد ، ويعيشون في أجوائها ليستكشف ما فيها من جديد تثيره ألوانها وجزئياتها لكل مهتم فيها متأمـــــل لهـــا)[3]

ولعل أن أشعار أبي نواس وبشار بن برد ومسلم بن الوليد ومن سواهم من الشعراء المجددين سنجد فيها ما يؤكد صدق الفردية السابقة..

لقد شغف الشعراء في القرن الثاني شغفوا بالتصوير الفني وقصروا الإبداع في صورهم قصرا بعد أن صار للصورة الفنية قيمتها ومنزلتها لا عند الشعراء فحسب ،بل وعند العامة والخاصة في هذا القرن على السواء ،وكما تسابق السلف كما يقول الجرجاني صاحب الوساطة (على جودة اللفظ وشرف المعنى)[4]

تسابق شعراء هذا القرن على دقة التصوير وبراعة التعبير ،مما سبب ظهور العديد من الصور الفنية الجديدة والمبتكرة ،صور لم نلحظها في شعر الشعراء من قبل صور مطلية بالزخرف اللفظي والمعنوي ،وبهروا سامعيهم بجلالها ورونقها ودقة جزئياتها بعد أن ربطوها بروابط نابعة من إدراكهم للأشياء التي تعاطفوا معها واندمجوا بخيالهم فيها ،وأضافوا إليها دلالات فكرية وشعرية جديدة وخلعوا عليها صفات وسمات ليس لها في حكم العقل ، لكنها مستمدة من روح الحق وجوهرها الصحيح الخيال الشاسع والتفكير المتشعب.

والآن بعد أن عرفنا تجديد الشعراء في صورهم الفنية واهتمامهم بالتصوير الفني وكيف تسابقوا في رسم أشكال الصورة الجمالية في قصائدهم ومقطوعاتهم الشعرية والسؤال المطروح هل شارك الشعراء المذهبيون في شعرهم المذهبي شعراء القرن وتغنوا وأبدعوا واهتموا بدقة التصوير ، وربطوا بين أجزاء وعلائق صورهم واستقصوا عناصرها الجزئية الدقيقة ؟ أم أنهم لم يأبهوا في شعرهم بهذا التصوير الفني والإبداع الجمالي والتألق في رسم أشكال الصورة؟

كما رأينا سابقا عند الشعراء المذهبين إذ لم يحفلوا ولم يعبأ في شعرهم المذهبي بالتقاليد الفنية سواء كانت بصورتها القديمة أم المستجدة ،وهجموا على موضوعهم وغاصوا إلى أعماق مبادئهم وعقائدهم وأكدوا آراءهم ولم يهتموا بحسن اللفظ وسلامة التركيب ولا بالمقدمات طللية كانت أو غزلية لأن هذه

المسائل لم تكن هم الشاعر المذهبي وتتنافى في اعتقاده مع الغرض الذي يعالجة بشعره ،وكما لم يحفلوا بالجودة في اللفظ ودقة التراكيب لم يحفلوا أيضا بالإبداع والتصوير الفني ، وجادلوا وناقشوا وحاوروا مخالفيهم ودحضوا مزاعمهم وأبطلوها واقنعوا سامعيهم بما يعتقدون بشعر يكاد يخلوا من الصور الفنية والإبداع الفني ،ولم نلحظ في هذا الشعر مجالا ولا فسحة للمحسنات اللفظية ولا المعنوية .

وهذا بالطبع لا يدعوا للعجب والاستغراب ،كما أننا لا نتجني ولا نتحامل على الشعراء المذهبين ولا على شعرهم المذهبي العقائدي ،فالشاعر منهم أولا وقبل كل شيء يعالج موضوعا مصطبغا بالصبغة الفلسفية ومطليا بطلاء لغة المتكلمين والفلاسفة،ولم يسبق للشعراء أن عالجوا مسائله وتجادلوا في قضاياه،والخيال يكاد يكون معدوما منه وكذلك العاطفة لا مجال لها إلا فيما ندر،أي أن الشاعر المذهبي لا يتخيل شيئا فيرد أن يجسده ويشخصه لسامعه،بل يقرر آراء ومعتقدات ويجادل ويناقش ويستنبط ويحلل عن طريق العقل،وما دام الخيال لا مجال له في هذا الشعر والعاطفة لا أهمية لها .

إذن من الضروري أن يفتقد هذا الشعر الذي يتخذ من العقل وسيلته، الصور الفنية الجميلة التي نلحظها عند شعراء الموضوعات التي تعتمد اعتمادا تاما على خيال الشاهر وليس على عقله.

و لم يكن الشعر في نظر الشعراء المذهبين إلا وسيلة لغاية،وهي غاية أسمى وأثمن عندهم من التصوير الفني وهي الوصول إلى عقل خصمه وإقناعه بما يعتقد ولا يعتنق هولا يشغل نفسه بدقة التصوير الفني،بل يشغل نفسه قبل كل شيء بالتحليل والاستنباط وتقديم الأدلة المنطقية والبراهين العقلية على صدق وصحة معتقده،وما دام هذا هو هم الشاعر المذهبي الذي لا يمكن إلا في نصرة مذهبه ظالما أو مظلوما،وإذاعة آرائه ومعتقداته، إذن فلا نعجب إن خلا هذا الشعر من جمال التصوير وبراعة التعبير الفني،لكن على أي حال ظل هذا الشعر بطبيعة موضوعه عملا نفسيا رائعا يشكر عليه شعراؤه الذين قدموا إلى الشعر العربي موضوعا عقليا جديدا وأساليب منطقية لم نعهدها في الشعر العربي قبل هذا القرن،فهذا هو الفن،وهذه هي قمة الإبداع والروعة.

وحتى لا نهتم بالمغالاة والتعسف في حكمنا على الشعر المذهبي بافتقاره إلى الصور الفنية سنقدم لكل مذهب من المذاهب التي شهد صراعها القرن الثاني قصيدة أو قصيدتين،وسنقوم بتحليل عناصرها لنستطيع الوقوف عن كثب من الحكم الذي أصدرناه على هذا الشعر،لكن نود قبل أن نبدأ بذكر وشرح هذه القصائد أن نشير إلى ملاحظة وهي أن الباحث أو الدارس لو جمع الشعر المذهبي الذي تفوه به الشعراء المذهبيون على اختلاف عقائدهم في هذا القرن فإن نظره لا يقع إلا على بعض الصور التي لم يكلف الشاعر نفسه في تصويرها ورسم جمالها،وتكاد تختلف إلى حدكبير عن الصور الفنية التي رسمها الشعراء المعاصرون،ومع ذلك ظلت هذه الصور القليلة التي نجدها في بعض القصائد المذهبية مطبعة بالطابع العقلي والتقريري،كما أنها خلت خلوا تاما من الزركشة والزخرفة اللفظية،لا جناس ولا طباق ولا تورية إلا ما ندر .

ولنقرأ قصيدة ثابت قطنة شاعر المرجئة يقول: (5)

يا هند فاستمعي لي إن سيرتنا أن نعبد الله لم نشرك به أحـــــدا
نرجى الأمور إذا كانت مشبهة ونصــدق القول فيمن جار أو عندا
المسلمون على الإسلام كلهــم والمــشركون استووا في دينهم قددا
ولا أر أن ذنبا أحـــــــــدا م الناس شركا إذا ما وحدوا الصمدا

لانسفك الدم إلا أن يراد بنا سفك الدماء طريقا واحدا جـــــــددا
من يتق الله في الدنيا فإنـــه أجر التقى إذا وفي الحساب غـــــدا
وما قضى الله من أمر فليس له رد وما يقضي من شيء يكن رشـــدا
كل الخوارج مخط في مقالته ولو تعبد فيما قال واجتهـــــــــدا
أما علي وعثمان فإنهـــما عبدان لم يشركا بالله مذ عبـــــــدا
وكان بينهما شغب وقد شهدا شق العصا ،وبعين الله ما شهـــــــدا
يجزى علي وعثمان بسعيهما ولست أدري بحق آيـــــــــة وردا
الله يعلم ماذا يحضران بـــه وكل عبد سيلقى الله منفـــــــــردا

هذه القصيدة المذهبية هي الوثيقة التاريخية الشعرية الوحيدة التي توضح آراء ومعتقدات المرجئة، لكن لو نظرنا إلى قيمة القصيدة الفنية فإنها بلا شك تقل بنسبة كبيرة عن قيمتها العقدية ،ولو نظرنا إلى أبياتها بيتا بيتا، وأطلنا التدقيق والنظر في أفكاره، نجد أنها تخلوا خلوا تاما من أي صورة فنية وبينها وبين التعبير الفني بعدا شاسعا، وجل الذي تقع عليه أيدينا حقائق وآراء مذهبية بحتة .وهذه الحقائق وحدها التي شغلت عقل الشاعر وخياله في وقت واحد، فهو لم يعبأ بدقة التصوير ، ولا بالتشبيه ولا بالاستعارة، ولا بالمحسنات اللفظية من جناس وطباق إلى غير ذلك من ضروب التصوير، بل مضى يعدد آراء المرجئة بلا خيال ولا تصوير.

وهذه الملاحظة سبق وأن تنبه إليها (النعمان القاضي)، حيث قال:(وهي من هذا القبيل تشبه إلى حد كبير مقالة الهاشميات التي أودع فيها (الكميت) أصول العقيدة الزيدية وآراءها ، بل لا نغالي إذا قلنا إنها أكثر بعدا عن الشعر المألوف من الهاشميات لشدة جنوحها نحو التقرير الفكري المجرد وانعدام التصوير الفني، ولهذا تميزت هذه الأشعار بأنها تقريرية تماما،لا فسحة فيها للتعبير بالصور ولا لجوء فيها إلى الخيال)[6]

وفقر القصيدة السابقة من التصوير الفني والجمال لا يعود بالتأكيد إلى الشارة
نفسه بل يعود إلى الموضوع الذي تعالجه القصيدة ،ونحن لو نظرنا إلى قصائد الشاعر في موضوعات أخرى نجد أنها تختلف اختلافا تاما عنها فهي غزيرة بالصور الفنية الرقيقة التي قصدها الشاعر وعبر عنها بخياله ووجدانه لا بعقله كما رأيناه في القصيدة المذهبية السابقة التي افتقدت العنصر الفني.

على هذه الشاكلة سار الشعراء المذهبيون في بناء قصائدهم ومقطوعاتهم واتكأوا على عقولهم في تقرير آرائهم ومبادئهم المذهبية وإن ظهر في بعض قصائدهم الطلاء العاطفي إلا أنه ظل زخرفا خارجيا،كما أن الشاعر لا يقصد في هذه العاطفة شيئا،بل جاءت نتيجة حتمية وحقيقة عن شدة إخلاصه وإيمانه وتمسكه بمذهبه الذي يؤمن به، وللتدليل على ما نقول قصيدة (صفوان الأنصاري)شاعر المعتزلة الذي يرد فيها على (بشار بن برد)، وعاطفة الشاعر وصورته الشعرية بوجه عام لم تظهر إلا في الأبيات الأخيرة من القصيدة .أما بدايتها فقد غلب عليها الطابع التقريري وسرد الحقائق وتقديم الأدلة والبراهين العقلية والمنطقية،يقول صفوان الأنصاري[7]

زعمت بأن النار أكرم عنصرا وفي الأرض تحيا بالحجارة والزند
ويخلق في أرحامها وأرومهـا أعاجيب لا تحصى بخط ولا عقـد
وفي القعر من لج البحار منافع من اللؤلؤ المكنون والعنبر الـورد
كذلك سر الأرض في البحر كله وفي الغيضة الغناء والجبل الصلـد
ولا بد من أرض لكل مطهـر وكل سبوح في الغمائم من جـد
كذلك وما ينساح في الأرض مشيا على بطنه مشي المجانب للقصـد
ويسري على جلد يقيم حـزوزه تعمج ماء السيل في صبب حـرد
وفي قلل الأجبال خلف مقطـم زبرجد أملاك الورى ساعة الحشـد
وفي الحرة الرجلاء تلقى معاونا لهن مغارات تبجس بالنقـد
من الذهب الإبريز والفضة التي تروق وتصبي ذا القناعة والزهـد
وكل فلذ من نحاس وآنـك ومن زئبق حب ونو شادر تسـدى
وفيها زرانيخ ومكدر ومرتـك ومن تمر قشيشا غير كاب ولا مكـد
ترى العرق منها في المقطع لائحا كما قدت الحسناء حاشية البـرد
ومن اثمد جون وكلس وفضـة ومن توتياء في معاونة هنـدي
وفي كل أغوار البلاد معـادن وفي ظاهر البيداء من مستوى نجـد
وكل يواقيت الأنام حليهـا من الأرض والأحجار فاخرة المجـد
وفيها مقام الخل والركن والصفا ومستلم الحجاج من جنة الخـلد
وفي صخرة الخضر التي عند حوتها وفي الحجر المهمى لموسى على عمـد
وفي الصخرة الصماء تصدع آيـة لأم فيصل ذي رغاء وذي وجـد
مفاخر للطين الذي كان أصلنـا ونحن بنوه غير شك ولا جحـد
فذلك تدبير ونفع وحكمـة وأوضح برهان على الواحد الفـرد

لاشك أن الشاعر حتى البيت الأخير لم يقدم لنا صورة شعرية فنية ،وكل ما أتى به هو الكشف عن مكنونات الأرض ،و النار عليها الدليل تلو الدليل على بطلان مزعمه،لا فسحة ولا مجال للخيال،لا استعارة ولا تشبيه إلافي قوله:

ترى العرق منها في المقاطع لائحا كما قدت الحسناء حاشية البـرد

لكن تشبيهه هنا ظل ساذجا بسيطا لا إبداع ولا فن فيه،بل اتخذ منه عاملا مساعدا لا براز القيمة المادية وليس القيمة الفنية،ولو أن الشاعر اكتفى بهذا القدر من الأبيات لغدت القصيدة تتفق إلى حد كبير مع قصيدة (ثابت قطنة) السابقة ،لكنه ألحقها بصورة شعرية ذات شقين ،أحدهما قائم على المدح والجانب الآخر قائم على ذم وتقبيح (بشار) ،ولنسمع باقي القصيدة لنتعرف صدق الشاعر ومدى تمسكه وإخلاصه لمذهبه ولأتباعه ،ومن خلالها سنجد أن الشاعر قد قدم لنا سيئا،لكننا لا نستطيع أن نقول عنها

إنها صورة فنية برع الشاعر فيها وأجاد ،بل ظلت صورة عادية ولولا تجلية العاطفة عليها لافتقدت هذا العنصر الفني.

أتجعل عمرا والنطاسي واصلا كأتباع ديصان وهم قمش الصـــد
وتفخر بالميلاء والعلج عـاصم وتضحك من جيد الرئيس أبي جعد
وتحكي لدى الأقوام شنعة رأيـه لتصرف أهواء النفوس إلى الـــرد
وسميته الغزال في الشعر مطنبا ومولاك عند الطلم قصته مـــــردى
فيا ابن حليف الطين واللؤم والعمى وأبعد خلق الله من طرف الرشـــد
أتهجو أبا بكر وتخلع بعـــــده عليا وتعزو كل ذاك إلى بـــــرد
كأنك غضبان على الدين كلـــــه وطالب ذحل لا يبيت على حقـــــد
رجعت إلى الأمصار من بعد واصل وكنت شريدا في التناسخ والـــــرد
عليك بدعد والصدوف وفرتنـــــي وحاضنتي كسف وزاملتي هنـــــد
تواثب أقمارا وأنت مشـــــــــوه وأقرب خلق الله من شبه القـــــرد

حقا أن شاعرنا في أبياته الأخيرة هذه استطاع أن يضعنا في عصره،ويجعلنا نعيش مشكلته المذهبية وذلك بتقديمه لنا صورة صادقة ومعبرة عما كان يعاني منه المعتزلة ،وعما يعترضهم من مشاكل مذهبية،صورة ذات شقين،أحدهما قائم على المدح لرجال المعتزلة والإشادة بتقواهم وحسن إسلامهم وحرصهم على أركانه وسعة ثقافتهم ورزانة عقولهم وبلاغتهم وفصاحتهم،والجانب الآخر يقوم على التقبيح والذم لبشار وللديصانية التي ينتمي إليها بشار بوجه عام،ولكن هذه الصورة ليست بالدرجة الفنية التي نراها عند غيره من الشعراء المعاصرين،ومع ذلك كان بارعا ومجيدا في عمله بوجه عام؛حيث قدم لنا عملا فنيا يقوم على تقرير وسرد حقائق علمية قد يعجز شاعر من شعراء عصره على الإتيان وتقرير هذه الحقائق العلمية،واستطاع بلا شك أن يصل إلى غرضه وتحقيق هدفه بطريقة علية مقائمة على الأدلة والبراهين.أنت ترى كيف يستقصي جزئيات الأرض ويبين فوائدها فائدة فائدة،كأنه عالم له الدراية والمعرفة بما هو في باطن الأرض وخارجها،لذلك فالقيمة الفنية لهذه القصيدة لا تكمن في الصورة الشعرية الأخيرة بقدر ما تكمن في الأدلة والبراهين العقلية والمنطقية التي رد بها على خصمه وأفحمه وأبطله مزعمه.

وها هو ذا (بشر بن المعتمر) أيضا يسير في فلك صفوان،لكنه ينقل خلاف المعتزلة مع الفرق المذهبية المعاصرة بصورة فنية أدق من الصورة السابقة التي قدمها لنا صفوان،فيستخدم التشبيه أكثر من مرة،ويستخدم الكناية،واستطاع بلا شك أن يقدم لنا صورة مطلية بالطلاء المنطقي لم نلحظ مثلها إلا في صورالشعراء الذين تأثروا بلغة الكلام ومسائله المنطقية والعقلية يقول بشر بن المعتمر:[8]

لست إبـــاضيا غبيا ولا كرافض غـــــرة الجفر
كما يغر الآل في سبسب سفرا فأودى عنه السفـــــر
كلاهما وسع في جهل ما فعاله عندهما كفـــــــــر
لسنا من الحشو والجفاة الأولى عابوا الذي عابوا ولم يدروا
إن غبت لم يسلمك من تهمـــة وإن دنا فلحظه شـــــــذر
يعرض أن سالمته مدبـــرا كأنما بلسمه الدبـــــــر
أبله خب ضغين قلبـــــه له احتيال وله مكـــــــر
وانتحلوا جماعة باسمهـــا وفرقوها فهم اليســـــر
وأهوج أعوج ذولوثـــــة ليس له رأي ولا قـــــدر

وغرة في نفسه مثلـــــــه وغرهم أيضا كما غــروا
لا تنجع الحكمة فيهم كمـــا ينبوا عن الجردلة القطــر
قلوبهم شتى فما منهـــــم ثلاثة يجمعهم أمـــــــــر
إلا الأذى أو بيت أهل التقى وأنهم أينهم خـــــــــــدر
أولئك الداء العضال الـــذي أعيا لديه الصاب والمقـــر
حيلة من ليست له حيلـــــة حسن النفس والصبـــــــر

الأبيات التي أمامنا من قصيدة طويلة لبشر بن المعتمر ،يتحدث فيها عن الحيوان وأصنافه وفوائده وغرائبه، لكنه يتخذ من هذه الغرائب دليلا على قدرة الخالق وتأكيدا لمبدأ التوحيد، الذي يعتبر من أهم مبادئ المعتزلة وأصولهم ،كما أنه يتخذ من هذه القصيدة حديثا عن ضلال وحمق وسفاهة الفرق المذهبية التي على خلاف مع المعتزلة كالرافضة والإباضية إحدى فرق الخوارج والحشرية ساخرا من أعمالهم التي يرتكبونها داحضا آراءهم ومعتقداتهم التي ينادون بها،وقدم لسامعيه ولنا صورة شعرية لا تحمل في جوانبها إلا السخرية والازدراء بأصحاب هذه الفرق، واستطاع بما يتمتع من سعة تفكير أن يخرج لنا صورة فنية رائعة،صورة لا ترتكز إلا على الحجاج والجدال، والعقل، لا فسحة فيها للخيال.

فهو في البيت الأول والثاني يرى أن إيمان الرافضة بجلد إمامهم الذي يعتقدون فيه كل علوم الغيب وما يكون إلى يوم القيامة، كالمسافرين الظمأى يخدعهم سراب الطريق ولم يبلوا ظمأهم وكان الهلاك نهايتهم.

وفي البيت السابع يهاجم الحشرية ويسخر من أعمالهم التي يرتكبونها ومن معتقداتهم التي ينشرونها بين الناس،فيقول إن هذه الجماعة لو حاولت التقرب والتودد إليهم لكي تناقشهم وتؤكد لهم كذب ما يدعوه،تراهم هربوا من أمامك وأداروا لك ظهورهم كالملسوع بزنبر خوفا من تهجم وتلسعه الزنابير الأخرى،وبعد أن ينتهي من السخرية القبيحة من الرافضة والحشرية ويضعهم في هذه الصورة القبيحة يقدم لنا صورة شاملة وعامة عن هذه الفرق التي تخالف اعتقادات مذهبه،ويقول :إن الجبن والخوف من المجادلة والمناقشة دائما عالق بنفوسهم ،وهذا لا يعود إلا لكذبهم في الأقوال التي ينادون بها ،ولو حاولت مجادلتهم ومحاورتهم تسمروا في أماكنهم لا يأتون بحركة ولا يعرفون كيف يردون عليك ،وفزعهم منك

أشبه بفزع الشاة أو الجدي الذي يفاجأ بأسد أو ذئب، ويحول خوفه بينه وبين النجاة بنفسه فيقع فريسة لهذا الأسد أو ذاك الذئب ،ومع ذلك تراهم يحتقرون غيرهم مغترين بأنفسهم إلى أبعد الحدود،وسدوا منافع الحكمة على عقولهم حتى عادوا لا يتقبلون رأيا ولا نصيحة من غيرهم،معتقدين بأنهم وحدهم أصحاب العلم والمعرفة ،كالحجر الصلب الذي لا ينتفع بالماء حين ينزل عليه فلا يمتصه ليلين به نفسه لكنه يتركه يسيسل عنه ويتحاشى الارتواء منه.

وقبل نهاية حديثه يلجأ إلى الكناية ويقول، فمن شيم هؤلاء الاختلاف فيما بينهم ،والحقد والكراهية للناس،فلا ينال منهم سوى الأذى ورميهم بالزور والبهتان ،وإذا نظروا للناس ينظرون لهم بمؤخرة عيونهم كناية عن خبثهم ولؤمهم لعدم استطاعتهم مواجهة الخصم.

وفي نهاية قصيدته يقدم تشبيها بليغا لكنه يقوم على الازدراء والسخرية فيقول :إن هؤلاء الناس (الفرق السابقة) أصبحوا كالمرض المستحكم في صاحبه الذي عجز الأطباء عن علاجه.

ولا ريب أن الصورة التي يقدمها لنا ابن المعتمر صورة فنية جميلة وقصيدته بوجه عام عمل فني رائع استطاع بلا شك بصوره السابقة أن يجعلنا نعيش ونحيا واقعه، ووضع أيدينا على الخلافات

المذهبية،ووضح لنا إلى أي حد كان الصراع بين المذاهب إسلامية كانت أم منحرفة في القرن الثاني الهجري.

ورغم أن هذه الصورة التي يكتنفها الغموض الفني،إلا أنه استطاع بهذا الغموض التصويري أن يؤكد على أهمية المعتزلة ومنزلتهم في الإسلام وإلى العبء الذي تحملوه في مقارعة خصوم الإسلام بوجه خاص وخصوم المعتزلة بوجه عام لكن هذه الصورة تظل قبل كل شيء قائمة على العقل والنقاش والجدال صبغتها وطلاؤها،والشاعر لم يقصد من وراء تشبيهاته السابقة إلا تحقير أصحاب هذه الفرق والحط من شأنهم،والإشادة بأتباعه ورجال مذهبه ذوي العقول المكتنزة بشتى ألوان العلم والمعرفة .أي أن الذي يقصده لا يكمن في إدهاش سامعه بدقة هذا التصوير،بل ليؤكد له على بطلان مزاعم الفرق السالفة .كما أنه لم يستخدم المحسنات اللفظية إلا في الجناس الناقص بين كلمتي أعوج وأهوج وعدا هذا المحسن لا نجد مجالا في أبياته السابقة للزخرفة اللفظية.

أما شعر الشيعة المذهبي فقد افتقد الإبداع الجمالي والعنصر الفني كما افتقدته قصائد المعتزلة والمرجئة،وإن ظهرت في شعرهم هذه العاطفة الجياشة وصدق الشاعر ،إلا أنها بنسبة أقل إذا قارناها بعواطفهم في شعرهم السياسي،فقد حفل بحرارة العاطفة فقدموا لنا صورا تعبر تعبيرا حقيقيا ومؤثرا عما حل في آل البيت من اضطهاد وتعسف، وتشعر وأنت تقرأ أشعارهم السياسية بأنك أمام شعراء فنانين مبدعين،على عكس شعرهم المذهبي،فقد سيطر على الجانب العقلي أكثر بكثير من الجانب العاطفي، وتقرأ القصيدة من بدايتها حتى نهايتها بلا انفعال كأنك أمام عالم يصبغ لك حقائق علمية أو أمام مؤرخ يقدم لك حوادث تاريخية خالية من كل تصوير فني وإبداع جمالي ، لا جناس ولا طباق ،ولا استعارة ولا تشبيه يوقفك لتتأمل في جماله أو استعارة تشد انتباهك.

فهذا السيد الحميري في قصيدته التي يؤكد فيها على رجعة ابن الحنفية إلى الدنيا:(9)

سمي نبينا لم يبق منـــــهم ســـــــواه فعنده حصل الرجاء
تغيب غيبة من غير موت ولا قتل وسار به القضـــــــــاء
فحل فما بها بشر ســـواه بعقوته له عسل ومـــــــــــاء
إلى وقت ومدة كل وقــت وإن طالت عليه له انقضـــــــاء
فقل للمناصب الهادي ضلالة تقوم وليس عندهم عنـــــــــاء
فداء لابن خولة كل نفـــــول يطيب به وأنت له فـــــــــداء
كأنا لابن خولة عن قريـــــب ورب العرض يفعل ما يشـــــاء
يهز دوين عين الشمس سيــفا كلمع البرق أخلصه الجـــــــلاء
تشبه وجهه قمرا منبـــــــرا يضيء له إذا طلع السنـــــــــاء
فلا يخفى على أحد بصيـــــر وهل بالشمس ضاحية خفـــــــاء

إن السيد الحميري لا يقدم لنا في قصيدته السابقة إلا صورتين يشبه فيها لمعان سيف ابن الحنفية بتوهجه أقوب ما يكون إلى قرص الشمس،فإذا حركه وهو بيده يصدر بريقا يشبه لمعان كتلة البرق الذي يظهر في كبد السماء فيخطف لمعان البصر.

وفي البيت الذي يليه يشبه جمال ونور الإيمان الذي يكسو وجهه بالقمر الذي ينير الطريق فيمشي الناس على هديه،وعدا هذين التشبيهين الساذجين لا نلحظ في قصيدته السابقة أي صورة أخرى.

وهاهي ذي قصيدة ثانية يختلف الرواة حول قائلها،فمنهم ينسبها للسيد الحميري ، ومنهم من ينسبها للخزاعي .وسواء كانت للسيد أم للخزاعي،فإنها لا تغير حكمنا على هذا الشعر يقول الشاعر:(10)

ألا أيها الجدل المـــــــعنى لنا ما نحن ويحك والعنـــاء

أتصبر ما نقول وأنت كهـــل تراك عليك من درع بـــرداء
ألا إن الأئمة من قـــــريش ولاة الحق أربعة ســـــواء
علي والثلاثة من بنيـــــه هم الأسباط والأوصيـــــاء
فأنى في وصيته إليهـــــم يكون الشك منا والمـــراء
بهم أوصاهم ودعا إليهـــــم جميع الخلق لو سمع الدعـاء
فسبط سبط إيمان وحلـــــم وسبط غيبنه كربـــــلاء
تظل مظلة منها عـــــزال عليه وتغتدي أخرى مـــلاء
وسبط لا يذوق الموت حـــــتى يقود الخيل يقدمها اللـــــواء
من البيت المحجب في ســـــراه شراة لف بينهم الأخـــــاء
عصائب ليس دون أعز أجـــلي بمكة قائم لهم انتهـــــــاء

نلاحظ في هذه القصيدة السابقة أن عاطفة شاعرنا الجياشة الملتهبة التي نلحظها في شعره السياسي وشعر الشيعة السياسي بوجه عام لا وجود لها بين هذه الأبيات التي أمامنا ،صحيح أن صاحبنا متحمس لأمامه ابن الحنفية إلى أبعد الحدود ويعتقد اعتقادا لا شك فيه بأنه سيرجع إلى الدنيا ويزيل الظلم والجور الذي حل بآل البيت وسيقود المعارك ضد من أطعمهم وأذاقهم الشقاء،لكن حديثه كاد يفتقد العاطفة المشبوهة التي نجدها في الشعر السياسي ،وهنا يكمن الخلاف الفني بين شعر الشيعة السياسي وبين شعرهم المذهبي العقائدي، فالشاعر هنا يؤكد ويقرر ويثبت مقتل الإمام علي (رضي الله عنه)في شعرهم السياسي،أي أن بكاءهم وعويلهم

وصدق مشاعرهم وأحاسيسهم الذي لمسناه من خلال أشعارهم السياسية نجدهم قد برروه في شعرهم المذهبي.

ونظرة إلى قصائد الشيعة السياسية نجد فيها دقة التصوير والبراعة في رسم الصورة الفنية الباكية المؤلمة لسامعها وقارئها، أما هنا فإننا لا نعيش بصدق مع الشاعر، ولا نشعر بما يشعر ،بل كلها تأكيدات وأدلة على اعتقادات دينية بحتة لا مجال فيها للخيال والتصوير، ولا جناس ولا طباق ولا تشبيه،ولا استعارة مكنية أو تصريحية . لكن هذه القاعدة يكاد يشذ عنها دعبل الخزاعي في بعض شعره المذهبي ، فنراه يجري وراء الزركشة اللفظية في بعض أبياته المذهبية في قصيدته الثانية السياسية ، فيستعمل الجناس والطباق في أكثر من بيت يقول:[11]

فلولا الذي أرجوه في اليوم أو غد لقطع قلبي أثرهم حســـرات
يميز فينا كل حق وباطـــــل ويجزي على النعماء والنغمات
فيا نفسي طيبي ثم يا نفسي أبشري فغير بعيد كل ما هـــــوآت
ولا تجزعي من مدة الجور إننـــي أرى مدتي قد أدنت بشتـــات
فإن قرب الرحمن من تلك مـــدتي وأخر من عمري لطول حيـاتي
شفيت ولم أترك لنفسي رزيـــة ورويت منهم منصلي وقنـــاتي
فإني من الرحمن أرجو بحبـــهم حياة لدى الفردوس غير ثـــاب

فهو يستخدم الطباق في البيت الأول بين كلمتي اليوم وغد، ويستخدم هذا الحسن اللفظي أيضا في البيت الثاني في كلمتي حق وباطل ، وكلمتي النعماء والنقمات ، والجناس غير التام في كلمتي شفيت ورويت،لكن هذا الطلاء اللفظي يظل على أي حال خارجيا،أما الطلاء الداخلي فإنه لاشك قدم لنا صورة حية عن العناء والظلم الذي يعيشه آل البيت .وتصويره أيضا لا شك جيد، لكنه لم يتكلف هذه الصورة

تكلفا ولم يتصفها، بل جاءت معبرة عن واقعه الذي يعيشه،ومرآة صادقة لما يعانيه،وظلت مرتبطة فيها بموضوعه المذهبي.

أما في مقطوعاته المذهبية الأخرى فإننا نلحظه يسير في دائرة شعراء الشيعة ويشير إلى آراء وأفكار مذهبية دون أن يستخدم محسنات لفظية أو معنوية، ولم يهتم بالتصويروالتخيل،ةهذا ما نلحظه في مقطوعته التي يرد فيها على مروان بن حفصة

يقول في ذلك:(12)

قل لابن خائنة البعـــــول وابن الجوادة والبخـــــــــيل
إن المذمة للوصـــــــــي هي المذمة للرســـــــــــول
أتذم أولاد النبـــــــــي وأنت من ولد النفـــــــــــول

نلاحظ أن المقطوعة السابقة أقرب إلى الحديث العادي منها إلى الشعر واستخدامه الطباق في كلمتي،الجوادة والبخيل ،كان عفو الخاطر ،صحيح أنه قدم لنا صورة قائمة على الهجاء والتقريع لشخص مروان لكنها تفتقد إلى الصدق الفني الذي نراه عند بشار بن برد أو أبي نواس ومسلم بن الوليد، ولم يقصد الشاعر فيها إلا السب والهجاء وليس الإبداع في فن الهجاء.

أما الخوارج فلم يكونوا أكثر حظا في الاهتمام بالتصوير الفني في شعرهم الذي لا نستطيع أن نقول عنه إنه مذهبي ، بل هو إشارات إلى بعض الآراء والمعتقدات.

ومهما كان من أمر هذا الشعر فقد سار شعراؤهم فيه ضمن الإطار الذي سارفيه شعراء الشيعة.وكان صورة حقيقية ومعبرة عن حياتهم التي يعيشونها ،إلا أنهم لم يحفلوا بالجانب الفني فيه،واعتبروه مكسبا عقديا وليس مكسبا ماديا.وكما لاحظنا في القصائد والمقطوعات المذهبية السابقة بخلوها من الصورة،نلاحظها أيضا في شعر الخوارج ،فقد نقرا لأحدهم القصيدة التامة والمقطوعة القصيرة والطويلة ،وتقطع فيها الشوط الطويل حتى يقع نظرك على صورة أو لا يقع .وهاهو ذا (عمر بن الحسن الإباظي)شاعر الإيباظية يرثي أتباعه الذين سقطوا في أرض القتال

في فتنة صبروا نفوسهـــــــم للمشرفية والقنا السمـــــر
فالله ألقى الدهر مثلهـــــــــم حتى أكون رهينة القبـــــر
أو في بذمتهم إذا عقـــــــدوا واعف عند العسر واليســـر
متأهبون لكل صالحـــــــــة ناهون من لاقوا عن النكـــر
صمت إذا احتضروا مجالسهـــم وزن لقول خطيبهم وقـــــر
ألا تجيئهم فإنهـــــــــــم رجف القلوب بحضرة الذكـــر
متأوهون كان جمر غصـــا للموت بين ضلوعهم يســـــرى
تلقاهم إلا كأنهـــــــــم لخشوعهم صدروا عن الحشـــر
فهم كأن بهم جوى مـــــرض أو مسهم طرف من السحـــــــر
لا ليلهم ليل فيلبسهـــــــم فيه غواشي النوم بالسكـــــــر
إلا كذا خلسا وآونـــــــة حذر العقاب فيهم على ذعـــــر
كم من أخ لك فجعـــــت به قوام ليلته إلى الفجـــــــــر

قصبدة ابن الحسن الاباضي السابقة من أول بيت فيها حتى آخر بيت صورة معبرة ومرآة صادقة ينعكس عليها إيمان الخوارج وتقواهم،لكنه لم يقدم لنا صورة فنية نستطيع أن نقول إنه برع فيها وأجاد

،بل اعتمد في معظمها على تشبيهات عادية لا تدل على الجمال بل تدل على إيمان الشاعر وإخلاصه و إخلاص رجال مذهبه.

وهكذا يتأكد لنا فيهذه الدراسة من أن الشعراء المذهبين لم يعبأوا في شعرهم المذهبي بدقة التعبير وجمال التصوير ولم يحفلوا بالشكل الجمالي لشعرهم كما حفل به غيرهم من الشعراء المعاصرين لهم، وجل ما عملوه هو إثبات هذه الاعتقادات وتأكيد تلك المبادئ بشعر يكاد يختلف اختلافا عن الشعر العربي المألوف، ولم يسيروا في معالجة مسائله وقضاياه على ذلك الجسر الذي سار عليه القدماء ، ولا على جسر من خلال العقل وأدواته الفلسفية والقرآنية ومن أجل ذلك يثبت أيضا صدق مقولة المعاصرين لهم وتخطوهم جميعا، واتجهوا به اتجاها عقليا بحتا لا فسحة فيه

للخيال والعاطفة إلا ما ندر ، وجادلوا وناقشوا بعضهم بعضا من خلال العقل وأدواته الفلسفية والقرآنية ومن أجل ذلك يثبت أيضا صدق مقولة الأستاذ الدكتور هدارة التي يحلوا لنا أن نرددها معه في نهاية هذه الدراسة وهي :(أن الشعر المذهبي كان اتجاها جديدا حقا في الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، وقد تكون قيمته الفنية أقل بكثير من قيمته التاريخية والفكرية ، لأنه يعني بالاستدلال والوقائع والأسس والنظريات، دون أن يرعى رقة التعبير ولا جمال الأسلوب والأداء أو رونق الألفاظ، ولكنه على أية حال يصور الصراع بين المذاهب والفرق المختلفة التي كانت تمارس نشاطها الفكري في القرن الثاني)[13]

المصادر والمراجع:

1- أبو الفرج الأصفهاني :الأغاني ،تحق:علي السباعي وآخرون ،مؤسسة جمال للطباعة والنشر بيروت 1963.
2- جابر عصفور :الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ،المركز الثقافي العربي بيروت ،ط1992،3.
3- الجاحظ :البيان والتبين ،تحق:عبد السلام هارون،دار الجيل بيروت ،د ط- دت.
4- الجاحظ:الحيوان ،تحق:عبد السلام هارون ،دار الجيل بيروتط1988،3.
5- الجرجاني عبد العزيز:الوساطة بين المتنبي وخصومه ،تحق:أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي،دار العلم بيروت لبنان ،ط1966 .
6- السيد الحميري:ديوانه: شرح وضبط :حسين الأعلمي ،منشورات مؤسسة الأعلمي بيروت لبنان 1999.
7- دعبل الخزاعي:ديوانه ،سرح : مجيد طراد ،دار الجيل بيروت ط1998،1.
8- محمد مصطفى هدارة :إتجاهات الشعر العربي ،نشر دار المعارف مصر ط1998،1.
9- مصطفى ناصف : الصورة الأدبية ،دار الأندلس ،ط1981،2.
10- النعمان القاضي :الفرق الإسلامية في الشعر الأموي ،دار المعارف مصر .

الهوامش:

1- جابر عصفور : الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ص807
2- مصطفى ناصف : الصورة الأدبية ص 236
3- محمد مصطفى هدارة: اتجاهات الشعر العربي ص 591
4- الجرجاني عبد القاهر الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص 33
5- الأصفهاني: الأغاني جـ14 ص269
6- النعمان القاضي: الفرق الإسلامية في الشعر الأموي ص530
7- الجاحظ: البيان والتبين ،جـ1ص 27-29
8- الجاحظ: الحيوان جـ6 ص 290- 291
9- السيد الحميري: ديوانه ص49-50
10- الأصفهاني :الأغاني ،جـ14 ص14
11- دعبل الخزاعي :ديوانه ص144
12- دعبل الخزاعي : ديوانهص236
13- محمد مصطفى هدارة: اتجاهات الشعر العربي ص353